

القراءة في الإجازة

كتبها

عبدالباري بن حماد الأنصاري

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كيف يُحَصِّل طالب العلم الفائدة المنشودة من

قراءة الكتب والاطلاع عليها في إجازته؟

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا
محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.. وبعد.

فبمناسبة ابتداء إجازة العام الدراسي المنصرم لسنة
١٤٤٥هـ، فإنَّ كثيرًا من طلبة العلم يسألون عن
الطريقة المثلى في الاستفادة من أوقاتهم فيها، مما
يعينهم على حسن التحصيل، وجودة التأصيل.

ولا شكَّ أنه بالإضافة إلى الدورات المكثفة في
حفظ كتاب الله عز وجل والمتون العلمية، ينبغي
لطالب العلم أن تتنوع معارفه، وتقوى مداركه، ومما
له أثرٌ كبيرٌ في ذلك - بتوفيق الله عز وجل - كثرة

القراءة والاطلاع في كتب العلماء، بمختلف أنواعها
وفنونها.

ونحن وإن كنا في عصر قد ابتلي الكثير من أهله
بوسائل التواصل الحديثة، حتى صارت هي الأنيس
والجليس، والشغل والشاغل، والأعمار فيها تمضي،
واللحظات والساعات بها تنقضي، فأشغلت العقول
وأذهلت القلوب.

إلا أن العاقل ينبغي ألا يسمح لنفسه أن يترسل
معها، فتضيع عليها أوقاته، ويذهب عمره دون
حاصل ولا طائل.

ولست هنا بصدد الكلام على مطلق القراء ومحبي
الكتب، ولكن قصدت بهذه المقالة طلبة العلم على
وجه الخصوص.

فإنَّ أغلبهم يُحبُّ القراءة والاطلاع، وَيَشغفُ
بالكتاب، ويتمنى أن يكون قارئًا مستفيدًا حقَّ
الاستفادة، ومحصِّلًا من الكتب عيونَ فوائدِها ودُررَ
قلائدِها - كما جرت به العادة.

ولكنَّ نيلَ الطالب لا يكون بالأُمْنِياتِ،
ولا بمجرد المحبة تتحقق الرغبات.

فهذه بعض الأمور المهمة، التي يُرجى بالتوفُّرِ
عليها، تحقُّ الاستفادة من القراءة والاطلاع، فهي -
مع حسن القصد والإخلاص لله في الطلب - لها كبيرُ
الأثر في تحقُّ المطلوب وحصول المأمول، إن شاء الله
تعالى:

١- أن يُعدَّ الطالب نفسه جيدًا للقراءة والاطلاع:

فإن للاستفادة من قراءة الكتب وسائلَ وآلاتَ،
فإن استعدَّ بها القارئ، وكان امتلاكُه لها أجود =
حصل له الفائدة المرجوة بإذن الله.

ومعلوم أنّ كتب أهل العلم كُتبت بلغة فصيحة،
وبيانٍ ربما يكون في بعضها عاليًا رفيعًا، فيلزم الطالب
أن تكون معرفته باللغة العربية - نحوها ومفرداتها
وأساليبها - جيّدة.

فيدرس النحو وأهم قواعده، ويعرف قدرًا صالحًا
من علم التصريف، ويعتني بمراجعة مفردات اللغة
المشكلة عليه في مظانها من دواوين اللغة المعروفة.

ولا يغفل عن أن تكون معرفته بأصول الفقه وأهم
مسائله ومصطلحاته حسنة، فإنه السبيل إلى التفقه
الصحيح في الكتاب والسنة، وفهم كلام العلماء
العلم واستنباطاتهم بعد معرفة اللغة العربية وإتقانها.
وكل علم من العلوم له مصطلحاته الخاصة به،
فإذا تناول الطالب كتابا في علم ما: فينبغي أن يكون
عارفًا بمعاني أكثر ما يدور على السنة أهله

من مصطلحات. وما خفيَ عليه منها، راجعه في
مظانه، ليعرفَ معناه والمرادَ به.

وعامةً ما يُشكِل من مصطلحات العلوم يُتعرَّف
عليه في حلقِ العلمِ ومن أفواه العلماء والمتخصصين.
فكلما كان تحصيلُ الطالب على شيوخه أقوى
وأقعد، كان فهمُه لها أصحَّ وأجود.

ولذلك تسربت كثيرٌ من الأخطاء والأغلاط إلى
من كان جُلُّ تحصيله من الكتب، ولم يلازم حلقِ
العلم، وأغفل تلقيه عن أهله.

٢. تحديد أهدافه من القراءة:

فإنَّ هناك فرقاً كبيراً بين من يقرأ للمتعة وتزجية
الوقت، فتجده يشغل جُلَّ وقته في قراءة القصص
والأخبار، والروايات والأشعار = وبين من يقرأ

ليحصل علمًا، ويشحذَ ذهنًا، ويُقوّيَ معارفه، ويوسّع مداركَه.

فينبغي لطالب العلم أن يُحدّد هدفه من قراءة الكتاب المعين، لينال ذلك الهدف، ويُحقّق مقصوده.

فبعض الكتب لا يلزمه فيها استيعابُ قراءتها، بل يكفيه مراجعتها عند الحاجة فقط، كبعض المطوّلات في الفقه والحديث واللغة.

وإن كان بعض العلماء لجلدهم وعُلوّ همتهم - عُرف عنهم استقرار عدد من المطولات في علوم مختلفة.

نعم، إذا تمكّن الطالب علميًا فله أن يسلك هذا المسلك في قراءة المطولات، لكنها في الواقع مرحلة نائية الشّوط، بعيدة الشّأو، لا تُستحسن للطالب

المبتدي، فقد تضرُّه أكثر مما تنفعُه، وكان السلفُ
يُحبون أن يبدأوا بصغار العلم قبل كبارِه.

أما أهداف الطالب من قراءته فمتنوعة منها:

أ- التأصيل العلمي:

ويلزمه فيه مراعاة التدرج في الكتب التي يُطالعها،
وحُسن الاختيار لها، فيُقدِّم الأقل حجمًا، والأوضح
عبارةً، والأكثر أصالةً في ذلك العلم.

وإذا مرَّتْ به بعض المشكلات العلمية قيَّدها، ولم
يُهمَلها؛ ليراجع حلَّ إشكالاتها في مطولاتها أو مع
أساتذته وغيرهم من المتخصصين.

وكذلك يفعل مع الكلمات الغريبة لغويًا ،
أو المصطلحات المشكّلة.

وهذه القراءة ينبغي أن تكون مع التأمل وحُسن
التفهم لكلام المؤلف، وألا تكون على طريقة

الاستعراض السريع، إلا إذا كان ينوي قراءة الكتاب
مرةً أخرى.

وهنا أُنبّه على أن بعض الكتب ينبغي تكرار
قراءتها؛ لعظيم أهميتها، وغزارة فوائدها على المتعلم،
حتى قيل: إنَّ قراءةَ كتابٍ جيدٍ ثلاثَ مراتٍ خيرٌ من
قراءةِ ثلاثةِ كتبٍ جيدةٍ.

ونُقل أن المزيَّ قرأ "كتاب الرسالة" للإمام
الشافعي خمسمائة مرة.

وقرأ غالب بن عطية صحيح الإمام البخاري
سبعمائة مرة.

ولُقِّب بعض العلماء بأسماء بعض الكتب؛ لكثرة
تكرارهم لها كـ "الفصيح" و "المنهاجي"
وغيرهما.

ب- التذوق الأدبي والصناعي:

فقد يكون من أهداف الطالب من القراءة والاطلاع اكتسابُ الملكة الأدبية في الكتابة، والتذوقُ لبيان العلماء والأدباء، وهو مقصد شريف.

فيختار الطالب الكتب التي عُرِفَتْ بحسن بيانها، وجمال لغتها = فيكثرُ من مطالعتها، وتكرارِ ما تضمنته من بديع النثر ورائق الشعر.

فإن لذلك أثرًا معروفًا في اكتساب البيان وحسن الأسلوب.

وأما التذوق الصناعي فالمراد به: معرفة كيف يُؤلف العلماء كتبهم، ويُحسِنون سبكها وترتيبها؟ وكيف يُقيمون حججهم العلمية، وينقضون أدلة

خصوصهم؟ والأساليب العلمية والبحثية التي
يسلكونها في ذلك.

فإنه مع تأمل الطالب لهذه المطالب، وكثرة
ما يقرؤه من المصنفات والمؤلفات = يكتسب معرفة
يستطيع بها أن يقتدي بأولئك العلماء، ويسلك
منهجهم في التصنيف والتأليف.

ج- جمع مادة علمية لأبحاثه ومؤلفاته:

فمثل هذه القراءة ينبغي أن تعم كل ما يخدم
موضوع بحثه أو مؤلفه.

ولا يقتصر فيها على جمع مادة البحث عن طريق
برامج الحاسب، بل يلزمه تتبعها واستقراؤها بنفسه

من خلال المطالعة في مظانها، وكما قيل:

الجمع واجب متى ما أمكنا

د - القراءة لترقيق القلوب، وتهذيب الأخلاق،

والتحلي بالآداب الشرعية:

فلا شك أن أصل ذلك وأعلاه: القراءة في كتاب الله جل وعلا، وفي أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا أمر معلوم معروف عند طلبة العلم. إلا أن حديثنا هاهنا يتعلق بالقراءة في الكتب التي صنفها أهل العلم، في خدمة الكتاب والسنة، ووسائل التفقه فيهما.

فالقراءة في كتب الزهد والرقائق، وسير الربانيين من العلماء والزهاد والعباد = مما يُفيد الطالب في الاقتداء بهم: في إخلاصهم، وحُسن تعبدتهم، وعنايتهم بأعمال القلوب، ومسارعتهم في الطاعات، وبعدهم عن المعاصي والسيئات.

فإنَّ العلمَ غَرْسٌ، يَحْتَاجُ إِلَى تربةٍ صالحةٍ نقيَّةٍ من
الشوائبِ، حتى ينموَ ويؤتِيَ أَكْلَهُ.

فلذلك صَنَّفَ أئمةَ أهلِ العلمِ في هذا البابِ،
كالإمامِ عبدِ اللهِ بنِ المباركِ، والإمامِ أحمدَ، وأبي داودَ
وغيرهم، وضمَّنوه كتبهم كـ(كتابِ الرِّقَاقِ) من
"الجامعِ صحيح" للإمامِ البخاري.

واعتنى بعضُ العلماءِ المتأخريينَ بهذا البابِ عنايةً
فائقةً، كالإمامِ ابنِ القيمِ والحافظِ ابنِ رجبِ في
تصانيفَ عديدةٍ لهما.

كما أنَّ كتبَ التراجمِ زاخرةٌ بتلكِ الرِّقَاقِ والصورِ
المشرقةِ لأولئكِ العلماءِ الذينَ تعلموا، وعملوا
بعلمهم، وعلموه غيرهم، مع تحلِّيهم بنبيلِ
الأوصافِ، ورفيعِ الأخلاقِ.

هـ القراءة للاعتبار والاتعاظ:

فطالبُ العلم لا غنى له عن الاطلاع على كتب
التواريخ وأخبار الماضين، وتراجم العلماء السابقين،
فإنها كما قيل: تجاربُ المتقدمين مرآيا للمتأخرين، كما
يُبصر فيها ما كان، يُتبصّرُ بها فيما سيكون.

ويروى عن الإمام أبي حنيفة: الحكايات عن
العلماء ومحاسنهم أحبُّ إليَّ من كثير من الفقه؛ لأنها
آداب القوم.

فيكتسب منها علمًا بتجارب من سبقه من العلماء
والفهاء، والعقلاء والأدباء.

و- القراءة لمعرفة آداب طالب العلم وأخلاق

العلماء، وبدائيات العلوم وتاريخها، وأهم تصانيفها:
والمؤلفات في ذلك كثيرة، ومن كتب المحدثين
المشهورة التي صُنفت في هذا الباب: "الجامع

لأخلاق الراوي وآداب السامع" للخطيب
البغدادي، و"جامع بيان العلم وفضله" للحافظ ابن
عبد البر.

وفيما يختص بذكر المؤلفات والمصنفات، وابتداء
التصنيف فيها، فإنَّ كتب الفهارس والبرامج
والأثبات قد حوت مادةً وافرةً منها.

وفي مقدمات بعض الكتب الكبار تطرَّقُ لذلك،
كما في مقدمة النووي للمجموع، و"مقدمة ابن
خلدون لتاريخه"، ومقدمة حاجي خليفة لكتابه
"كشف الظنون".

فهذه ستة أهداف قد يعتني بتحقيقها طالب العلم
في أثناء قراءته، أو بتحقيق بعضها، فينبغي أن يراعي
كلا بحسبه، من حيث كيفية القراءة، ومصادرها،
وتقديم الأهم فالمهم.

وأما الأمر الثالث من الأمور التي ينبغي مراعاتها
لتكون القراءة نافعة ومفيدة فهو:

- تقييد الفوائد والشوارد:

فقد كان من عادة العلماء المتعارفٍ عليها بينهم،
ويراها المتصفحون لمقتنياتهم من الكتب = أن يُدوّنوا
عناوين ما يقفون عليه من الفوائد النفيسة، والمسائل
العلمية المحققة، خصوصًا ما كان منها في غير مظانّه،
وتمسُّ الحاجة إلى معرفته.

فإنهم يُقيّدونه إما في أول ورقة بياضٍ من الكتاب،
أو في بطانة غلافه.

وذلك ليقفوا على موضعها بيُسْر عند الحاجة
إليها.

وتختلف أساليبهم في التقييد، فإضافة إلى ما سبق فإنَّ بعضهم قد يُقيّد تلك الفوائد في ورقة خارج الكتاب، أو في دفتر كُنَّاش خاص.

وكل ذلك حسنٌ، فالمهم: ألا يدعَ التقييد، فيقعَ في بلية الإهمال والإغفال، خصوصاً الفوائد العزيزة، التي وقف عليها في غير مظانها - كما تقدم -، أو ما وجدته منها مُخَبَّأً في ضمن سفر كبير، أو أسفار عديدة، يعسر عليه استخراجُه منها إذا احتاج إليه.

وأنبّه هنا على أمر قد يغفل عنه المبتدئون، وهو: أنَّ حُسن الانتقاء يكون بحسب جودة التحصيل والتأصيل للطالب.

فإذا كان الطالب متمكناً في تحصيله، متميّزاً في تأصيله، فإنه ينتقي أحسنَ ما في تلك الكتب وأجودَه.

وإذا كان ضعيفَ التحصيل والتأصيل ظن الخرزة
جوهرة، والنحاس ذهباً.

فلذلك لا ينبغي أن يَغْتَرَّ الطالبُ بسوابق منتقياتِه،
وأوائل قراءاته؛ فالغالب أنها ضعيفةٌ بقدر ما كان
عليه من الضعف في بداياته، لكنها - بلا شك -
لا تخلو من فائدة، ولو لم يكن إلا أنها دلته على أنه
ترقى في العلم وقوي، حتى صار ينظر إلى معرفته
السابقة بعين الازدراء، بعد أن كان ينظر إليها بعين
الرضا، لو لم يكن إلا ذلك لكفى.

٤- تكرار القراءة، ومراجعة التقييدات السابقة:

تقدمت الإشارة إلى أن بعض الكتب يحتاج إلى
قراءة لأكثر من مرة، وأن تكرارَ قراءته يزيدُ الطالب
علمًا ورسوخًا.

ولذلك نجد أفاضل العلماء يُكررون تدريس
بعض الكتب والمتون مراتٍ عديدة، ولا يَسْأَمُونَ من
ذلك، لما خَبَرَوْه من جَوْدَةِ تلك الكتبِ وَحُسْنِ
تأليفها وعظيم فائدتها.

إلا أنَّ هذا التكرار ينبغي ألا يكون لكل كتاب.
نعم، الكتب التي بالوصف المذكور يُستحسن
تكرارها وإعادتها، ربما مرَّاتٍ ومرَّاتٍ.
وأيضًا لا شك أن قراءة كتاب جديد أخفُّ على
النفس وأروح لها، فهي تتشوّفُ للجديد، وترغب
في الطَّريف، وتَسْأَمُ من التكرار، وتكسلُ معه.

ومما يلزم الطالبَ من وقت ووقت = الرجوعُ إلى
منتدياته من الكتب التي قرأها، فيُعيد النظر فيها، فإن
ذلك يجعله أكثرَ استحضارًا واستظهارًا لتلك
الفوائد، وأحسنَ معرفةً بالكتب التي وردت فيها.

٥- الاستمرار مدةً طويلةً في القراءة ومصاحبة

الكتاب:

فإنَّ مواصلةَ الطلب، وعدمَ الانقطاع عن القراءة والاطلاع، والنَّهَمَ المستمرَّ فيهما: كلُّ ذلك كفيلاً - بتوفيق الله تعالى - أن يَغزُرَ معه علمُ الطالب، وترسَخَ معرفتُهُ، وتتوسَّعَ مداركُهُ، وتكثُرَ معلومَاتُهُ.

وهذا لا يحصل في الزمن القليل، بل يحتاج إلى أعوامٍ عديدة، حتى يرى الطالبُ الثمرةَ الحقيقيةَ لمطالعاتِهِ، والفائدةَ المرجوةَ من قراءتِهِ.

ولا شكَّ أنَّ الطالبَ النَّهَمَ المتَّيَمَّ بالكتب وقراءتِها، سيُعرف تميُّزَهُ بين أقرانه في مدة قصيرة، إذ كان يصرف أكثرَ وقته في هذا الشأن، فنضجت ثمرتُهُ فيه في وقتٍ أقصر.

والعلم كما يقال في العبارة المعاصرة: (تراكمي)
فكلما بُذِل في تحصيله الوقتُ والجهدُ المعتبرين =
تحصَّل منه ما يليق بذلك الوقت والجهد المبذولين
فيه.

ولكن لا يَعُزُّبُ عن الطالب اليقظ: أنَّ مقتبل
العمر ينبغي أن يَصْرِفَ منه حظًّا معتبرًا في حفظ
المتون وتعاهدها، فلا يقصُرَ وقته على القراءة
والاطلاع فقط، فليُتَفَتَّنْ لذلك، والله الموفق.



الخلاصة:

تقدم أن مما تتحقق به الفائدة المنشودة من قراءة
الكتب والاطلاع لطالب العلم أمورًا هي:

١- أن يُعَدَّ الطالب نفسه جيدًا للقراءة والاطلاع.

٢- أن يُحدِّد أهدافه من القراءة.

٣- أن يُقَيّد الفوائد والشوارد.

٤- أن يُكْرِر القراءة، ويراجع تقييداته لما انتقاه

سابقًا.

٥- أن يستمر مدة طويلة في القراءة ومصاحبة

الكتاب.

ولخصنا أهداف الطالب من قراءته في ستة أهداف هي:

أ- التأسيس العلمي.

ب- التذوق الأدبي والصناعي.

ج- جمع مادّة علمية لأبحاثه ومؤلفاته - إذا تأهّل

لذلك -.

د - القراءة لترقيق القلوب وتهذيب الأخلاق

والتحلي بالآداب الشرعية.

هـ- القراءة للاعتبار والاتعاظ.

و - القراءة لمعرفة آداب طالب العلم وأخلاق

العلماء، وبدايات العلوم وتاريخها، وأهم تصانيفها.

فهذه بعض الأمور المهمة التي يُرجى بتحقيقها أن
يُحصَلَ الطالب ما يُؤمِّلُ من منافع عديدة، ومقاصدَ
سديدة، من خلال قراءته في مختلف الكتب
والمصنَّفات، وربما فات بعضُ المهم من ذلك فذهل
عنه ولم يُذكر، وعُذرنا أن ما لا يُدرك كله لا يُترك
كلُّه وما عَسَرَ استحضاره اكتفي منه بما تيسر.
والله تعالى الموفِّق، وصلى الله وسلم على نبينا محمد
وعلى آله وصحبه أجمعين.

٢٠ / ١٢ / ١٤٤٥ هـ

